﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ [الأنبياء: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ الأحوالِ إلى ذكرِ أسبابِها، وموقفُ الكفّارِ منَ القرآن

بعد أن ذكرَ ﷻ في خاتمة الآيةِ السّابقةِ حالَ النّاس في اللّعب عند استماع الذِّكرِ؛ ناسبَ أن يذكرَ تعالى هنا سببَ ما هم عليه من غفلةٍ واشتغالٍ، وهو تشاغلُ قلوبِهم عنِ الآخرة بالمُلْهيات، فضلًا عن صدودِهم عنِ الحقِّ وصدِّ النّاس عنه، وإثارةِ غبارِ الشُّبَه والأباطيل، والتّمادي في التّآمرِ والتّحريض، رغمَ هذا الخطرِ الدّاهمِ والخطْبِ الجللِ الذي يقتربُ منهم يومًا بعدَ يوم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَاهِيَةً﴾: اسمُ فاعل منَ اللّهو، وهو اشتغالٌ بالباطل عنِ الحَقّ، واللّهو ما يَشغلُ الإنسانَ عمّا يُعنيه ويُهِمُّه، يقال: لهوتُ بكذا، ولهيتُ بكذا، اشتغلت عنه، يلهو وألهاه عن كذا: شغله عمّا هو أهمُّ[1].

2) ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: القلبُ: هو ذلك العضوُ المعروفُ بالجسد، وهو من أهمّ أعضاء الجسم وأشَدِّها خطرًا، وقلبُ الإنسان سُمّي به لكثرة تقلُّبه، ويُعبّرُ بالقلب عن المعاني التي تختصُّ به منَ الرُّوح والعِلْم والشّجاعة وغيرِ ذلك[2]، ويُطلقُ على القوَّة الباطنةِ: العقل، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37][3].

3) ﴿وَأَسَرُّوا﴾: منَ الإسرار، وهو الإفضاءُ بالسِّرّ إلى شخصٍ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لها).
(2) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قلب).

قريبٍ، وعكسُه الجهرُ، قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ [الملك: 13]، قال الخليل: "السِّرُّ: ما أسْرَرت، والسَّريرةُ: عملُ السِّرّ من خير أو شَرٍّ، ويقال: سريرتُه خيرٌ من علانيته، وأسررتُ الشّيءَ: أظهرتُه، وأسررتُه: كتمتُه"(1).

4) ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾: أصلُ النّجاء: الانفصالُ منَ الشَّيء، ومنه: نجا فلانٌ من فلان، وأنجيتُهُ ونَجَّيتُهُ، والنّجوةُ والنّجاةُ: المكانُ المُرتفِع، المنفصلُ بارتفاعه عمّا حوله، وناجيتُهُ، أي: سارررتُه، وأصلُه أن تخلوَ به في نَجْوة منَ الأرض، وقيل: أصلُه منَ النّجاة، وهو أن تُعاونَه على ما فيه خلاصُه، أو أن تنجُوَ بسرِّك من أن يُطّلَعَ عليكَ، وتناجى القومُ: ناجى بعضُهم بعضًا، "والنّجيُّ: المُناجي، ويُقال للواحد والجمع، قال تعالى: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم:52]"(2).

5) ﴿بَشَرٗ﴾: البَشَرُ: مشتقٌّ منَ البَشَرة، وهم ذُرّيّةُ آدمَ عليه السلام، وسُمّي كذلك لظهور جِلده – أي خلوّه – منِ الشّعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصّوفُ أوِ الشّعر أوِ الوَبر، أو لحُسْنِ الهيئة، فهو مشتقٌّ منَ البِشارة، وهي حسنُ الهيئة، يُقال: رجل بشير، وامرأة بشيرة: إذا كان حَسَنَ الهيئة، فسُمّي النّاسُ بشرًا لأنّهم أحسنُ الحيوان هيئةً، ويجوزُ أن يُقال: إنّ قولَنا (بشر) يقتضي الظّهورَ، وسُمّوا بشرًا لظهور شأنِهم، ومنه قيل لظاهر الجلد بَشرةٌ، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الرّوم: 20](3).

6) ﴿ٱلسِّحۡرَ﴾: أصلُ السِّحرِ: صرفُ الشّيء عن حقيقتِه إلى غيره، والسِّحرُ: تمويهٌ للشَّيء؛ لتخيُّله بخلاف حقيقتِه، مع إرادة تجوُّزه على من يقصدُه به، وسواء كان ذلك في سُرعة أو بُطء، وهو ضربان؛ أحدُهما: ما قام على الخِداع والتّمويه، والآخَرُ: ما كان بمعونة إبليسَ وجنوده(4)، وهو في عُرفِ الشّرع مختَصٌّ بكلّ أمرٍ يخفَى سببُه، ويُتخيَّلُ على غير حقيقته، ويجري مجرى التّمويه والخِداع(5).

(1) الخليل، العين: 7/ 186.
(2) الرّاغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نجو)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 21.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 101.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 272.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/ 619.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

موقفُ المشركين منَ القرآن نابعٌ مـنِ اشتـغـالِ قـلـوبِـهـم عـنِ الآخرةِ

تُبيِّن الآيةُ حالَ قلوبِ أولئك، في كونها في مَلهاةٍ عنِ الحقِّ، وانشغالٍ بالباطل، وهم مع ذلك يَصدُّون عنِ الحقِّ، ويوصي بعضُهم بعضًا بذلك، ويتآمرون في خلواتِهم، ويتهامسون في نجواهم، يُنكرُ كبراؤهم وعُتاتُهم: كيف ينسلُّ بعضُهم فُرادى متخفّين في جُنح اللّيل ليسمعوا القرآنَ، الذي يرمونه بالسّحر؛ لعجزِهم عن معارضتِه، وانبهارِهم ببلاغتِه، مع نفورهم ممّا صدعَ به منَ الحقّ، وإبائِهم لِما جاء به منَ الخير، ومعنى ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تناجَوا سِرًّا، وأعربوا في تناجيهم عن إنكارهم لنبوّة محمّدٍ ﷺ لأنّه بشرٌ، فاعترضوا على كونه نبيًّا، وأنكرَ بعضُهم على بعضٍ، كيف يذهبون لسماع القرآنِ، الذي يرونه سحرًا، وهم أهلُ نظرٍ وعقل؟! كما يظنّون! ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الحالِ بعدَ الحالِ:

حالُ الغافلِ ما بين لَعِبٍ ولَهوٍ

مطلعُ الآيةِ الثّالثةِ متّصلٌ بالتي قبْلَها، فقولُه تعالى: ﴿لَاهِيَةٗ﴾ حالٌ بعد حال؛ مترادفةٍ أو حالٍ متداخلة، أي: إلّا استمعوه حالةَ كونِهم يلعبون، أو يلعبون حالةَ كونِهم لاهين، حيثُ إنَّ الحال هنا اشتملت على أفعال القلوب لدى الغافلين، والتي قبلَها على أفعال الجوارح، فتكاملتِ الحالان في بيان أحوال الغافلين، وأنَّها لا تخرج عن لهوٍ ولعبٍ، وهذا في غاية التَّشنيع عليهم، وبالغ التَّوقير لمخالفيهم منَ المؤمنين.

نُكْتَةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعل ﴿لَاهِيَةٗ﴾:

إذا ثبتَ السَّببُ تجدَّدت نتائجُه

آثَر النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ باسم الفاعل ﴿لَاهِيَةٗ﴾، ولم يقل: (يلهون) كما قال: ﴿يَلۡعَبُونَ﴾؛ لِما بينَ السَّبب ونتيجتِه من اختلافٍ، فالسَّببُ ثابتٌ وهو اللّهو، ونتيجتُه - وهي اللَّعبُ - متجدِّدةٌ، كأنَّه قيل: سيَبْقون لاعبين ما دامت قلوبُهم لاهيةً.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ:

القـلـبُ محـلُّ الـلّـهـو ومنبعُ اللّعب

أُسندَ اللّهو إلى القلوب في قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾؛ لأنّها محلُّ اللّهو ومنبعُه، فإذا فسد القلبُ فسد الجسدُ، وهذا مجازٌ مرسلٌ، من إطلاق السَّبب وإرادةِ المسبَّب، أو إطلاقِ الجُزء وإرادةِ الكلّ، فإذا غفل القلبُ تبعَهُ الجسدُ كلُّه، و"اللّاهيةُ من قول العرب: لهي عنه إذا ذَهِل وغَفَل، أي: وإن فطنوا لا يُجدي ذلك؛ لاستيلاء الغفلة والذّهول، وعدم التّبصُّر بقلوبهم"[1]، كما أنَّ "إسنادَ اللّهو إلى القلوب دليلٌ على أنَّ اللّهو عملٌ من أعمال النّفس"[2].

نُكْتَةُ تقديمِ اللَّعبِ على اللّهو:

تقـديـمُ مـا تـراه العيونُ عـلى ما تجهلُه العقولُ

قُدِّم ذكرُ اللَّعبِ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، على اللّهو في قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، "كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [مُحمّد: 36]؛ تنبيهًا على أنّ اشتغالَهُم باللّعبِ الّذي معناهُ السُّخريةُ والاستهزاءُ، مُعلّلٌ باللّهو الّذي معناهُ الذُّهولُ والغفلةُ، فإنّهُم أقدمُوا على اللّعبِ لِلهوِهم وذُهولِهم عنِ الحقِّ"[3]، فهو من تقديم الظّاهر على الباطن، وشأنُ الإنسان أن يرى الظّاهر وهو اللَّعبُ، وهو ما يستدعي فضولًا في معرفة سببِ ذلك؛ فيكون قولُه تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ من بابِ بيان السَّببِ.

بلاغةُ الاحتراسِ في تعيينِ نوعِ السَّماع:

استـمـاعُ القلبِ الـلّاهـي كـرؤيـةِ الأعمَى السّاهي

جاء قولُه تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ حالًا منَ الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ لدفعِ ما قد يُتَوَهَّم أنَّهم استمعوه وأصغَوا إليه، فبيّنتِ الآيةُ أنَّ قلوبَهم – وهي محلُّ التّأثُّر ومنبعُ الخشوعِ – في حالة لَهْوٍ لا تفيقُ منه، فلا فائدةَ من سماعِهم، فهي احتراسٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 407.
(2) عبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآنيّ: 2/ 197.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 120.

دافعٌ عن توهّم وقوعِ السَّماع النّافعِ، فهمُ استمعُوهُ استِماعًا لا وعيَ معهُ[1].

نوعُ الواو ودلالتُها:

إسـرارُ النَّـجـوَى مـعـنًـى قـائـمٌ بنفسِه يستحقُّ الذَّمَّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾ استئنافيّةٌ، والجملةُ بعدَها لا محلَّ لها، وجوَّز ابنُ عاشور العطفَ على جملةِ ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ إلى آخرها؛ لأنَّ كلتا الجُملتَين مسوقةٌ لذِكْر أحوالِ تَلقّي المشركين لدعوةِ النّبيّ ﷺ بالتّكذيب والبهتانِ، والتّآمُرِ على رفضها، فالذين ظلموا همُ المرادُ بالنّاس[2]، وعليه: فمعنى العطفِ والاستئنافِ متقاربان في بيانِ الغاية.

بلاغةُ الكنايةِ في اختيار فعلِ ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

إسـرارُ المشركين مـوقـفًـهـم مـنَ الـرَّسـولِ ﷺ حسدٌ ومكرٌ

اختار النَّظمُ الكريمُ مفردةَ الإسرار في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾؛ لبيانِ حالِهم في حسدِ النَّبيِّ ﷺ، فما قالوه سِرًّا في هذه الآية، قالوه جهرًا، فالمرادُ من ذِكْر الإسرار بيانُ حالِهم وشأنِهم مع رسول الله ﷺ، فهو كنايةٌ عنِ الحسدِ وشديدِ البُغض، وما يُثيرونه في مجالسِهم خاصَّةً، وقد ذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ من حروف الأضداد، أي: أظهروا[3]؛ والذي دعاهم إلى ذلك أنَّ المشركين أظهروا هذا القول، فلماذا يُخبِرُ عن إسرارهم للنّجوى؟

والجواب: أنَّه لا مانع من أن يكونوا قالوه سِرًّا وجهرًا، ولمّا ذُكِر ذلك سِرًّا قاله باعتبارِ الكنايةِ عنِ الحسدِ، والذي يُرشّحُ أنَّ الإسرار على ظاهره قولُه تعالى: ﴿ٱلنَّجۡوَى﴾.

نُكْتَةُ ذكرِ الفاعلِ مُضمَرًا:

لمّا أسرَّ الظّالمون قـيـلَـهـم، أسـرَّ النَّظمُ عنوانَهم إضمارًا

جاء الفاعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ مُضمَرًا وهو الواو، ولم يقل:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 12.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 12.
(3) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 2/ 34.

(وأسرَّ النَّجوى الذين ظلموا) ونحوَه؛ وذلك لبيانِ أنَّ المقصودَ بذلك طائفةٌ معهودة، وهمُ الذين ذَكرتْهم الآياتُ؛ المُتّصفون بالغفلة والقلوبِ اللّاهية، وهذا المعنى يُقَوّي على جَعْل الواوِ عاطفةً على فعل ﴿ٱقْتَرَبَ﴾، فيكونُ المقصودُ بالنّاس المقصودين هنا، وهم المشركون، ونُكْتةُ الإضمارِ التَّلويحُ بهم دونَ التَّصريح، فكما أنَّهم أسروا النَّجوى؛ فكذلك أسَرَّتِ الآيةُ التَّصريحَ بهم في فعل الإسرار، وفضحِهم فيما بعدُ، بَنَعْتِ الظّلم الصَّريح.

بلاغةُ الاتِّساق في اختيارِ مُفردةِ ﴿ٱلنَّجْوَى﴾:

أعظمُ الإخفاءِ ما كان بالفعلِ والاسمِ

جاء استعمالُ مفردةِ ﴿ٱلنَّجْوَى﴾ في النَّظم لِما فيها من اتِّساقٍ دلاليٍّ مع فعل ﴿وَأَسَرُّواْ﴾؛ حيثُ دلَّت هذه المُفردةُ على إسرارِ الحديث، فإنَّ التَّناجي بينهم كان شديدًا؛ إذِ الإسرارُ دالٌّ على إخفاءِ الحديث، وكذلك النَّجوى، وفي هذا الاختيارِ ما يُنبئُ عن إخبارِ القرآن بالغيبِ عمّا وقع منهم، ولمّا قالوه كما سيأتي، وهو كذلك يُنبئُ عن حرصِهم على قولِ ما قالوا ابتداءً سِرًّا، واللّه فضحَهم؛ ليُعْلِمَ النّاسَ أنَّ امتناعَهم عنِ الإيمانِ حسدٌ وبغضاءُ.

توجيهُ إعرابِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

ما صحَّ في صَنعةِ النَّحو لا تُشترط صحّتُه في توجيه البيانِ

يجوزُ في الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ثلاثةُ أوجهٍ: الرّفعُ والنّصبُ والجرُّ؛ فالرّفعُ إمّا أن يكون بدلًا من واو ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ تنبيهًا على اتِّسامهم بالظّلم الفاحش، وإمّا أن يكون فاعلًا، والواوُ في ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ علامةُ جمع، وإمّا أن يكون مبتدأً و﴿وَأَسَرُّواْ﴾ جملةً خبريّةً قُدِّمَتْ على المبتدأ، والنّصبُ مِنْ وجهين؛ أحدُهما: الذّمُّ، والثّاني: إضمار أعني، والجرُّ من وجهين؛ أحدُهما: النّعتُ، والثّاني: البدلُ من ﴿لِلنَّاسِ﴾[1]، وغالبُ هذه الأوجه صحيحٌ في صَنعة النَّحو، ضعيفٌ في التَّوجيه البلاغيِّ، وأوجهُها بلاغيًّا هو أن تكون بدلًا منَ الواوِ، على ما تقدَّم في نُكْتَةِ إضمار فاعل فعل ﴿وَأَسَرُّواْ﴾.

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 133.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

الـغـافـلـون الـلّاهـون هـمُ المـشـركـون الظّالمون

آثر النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ليعودَ الضَّميرُ في صلةِ الموصول ﴿ظَلَمُواْ﴾ على مخصوصٍ مقصودٍ مفهومٍ منَ السّياقِ وهم المشركون، وإلّا لفُهم أنَّ المرادَ بالظّالمين طائفةٌ أخرى غيرُ المتقدِّم ذكرُهم، فأظهر الاسمَ الموصولَ بعدما أضمر؛ تسجيلًا لفعلِهم ووصفِه بالظُّلم.

توجيهُ تخصيصِ صفةِ الظُّلمِ بالذِّكر:

وضعُ الفطنةِ في موضعِ الغفلةِ والعكسُ ظلمٌ قبيحٌ

خَصَّ النَّظمُ الكريمُ صفةَ الظُّلمِ بالاختيارِ دونَ الشِّركِ، أوِ الكفر، أوِ الحسد، أوِ التَّكذيب، أوِ الافتراء، وكلُّها صفاتٌ صادقةٌ على القوم، فقال تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لأنَّ الغافلَ المُعْرِضَ لاهيَ القلب، يلتزمُ غفلتَه في حالِه كلِّها؛ لكن لمّا أحسنَ أولئكَ التَّناجيَ والإسرارَ في الخفاء، ففطِنوا للخديعة والمكرِ بعدَ أن غَفَلوا؛ كان أنسبَ ما يُسجّل عليهم هو وصفُهم بالظُّلم، إذ هو وضعٌ للفطنةِ في غيرِ موضعها، ووضعٌ للغَفلةِ في غير موضعها.

موقعُ جملتَي الاستفهامِ منَ الإعرابِ والبيانِ:

شأنُ القرآنِ بيانُ المُجْمَلِ وإيضاحُ المكنونِ لأصحابِ العقلِ المكنونِ

فُصِل قولُه تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّه محمولٌ على أنَّه بدلٌ منَ النَّجوى، أي: أسرُّوا ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾، أو مفعولٌ لفعلٍ مقدَّرٍ، أي: قالوا: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾، أو محكيٌّ بالنّجوى؛ لأنَّها في معنى القولِ[1]، وعلى التَّقديرات الثّلاثة فإنَّ الجملةَ منصوبةٌ، وعليها فالجملةُ في حُكم المفعول أوِ البدل فلا وصلَ، وقولُه تعالى: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ له حُكْمُه، وموقعُ هاتَين الجملتَين منَ البيانِ، هو إظهارُ ما يجولُ في مجالسِ المشركين، وما يدورُ في ألسنتهم؛ فإنَّه ناطقٌ بفكرِهم، ومفصحٌ عن مضامين لُؤمِهم، ومكامنِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 409، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 134.

حسدِهم؛ فكأنَّه قيل: أتدرون ما النَّجوى التي بينهم؟ هي أسئلة كثيرة، هذا بعضُها.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعُه وغرضُه:

السُّؤالُ عنِ الواضحاتِ طريقُ إنكارِ الحقائقِ عند المبْطلين

غرضُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ التَّعجُّبُ؛ قصد به المشركون النّيلَ من مقام النّبيِّ ﷺ، فإنَّ استفهامَهم عنِ البشريَّة ليس المقصودُ به حقيقةَ ذلك، بلِ المرادُ به الوصولُ إلى نفي النُّبوّة عنه ﷺ، ولهذا ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الاستفهامَ مرادٌ به النَّفيُ[1]، والنَّفيُ من مآلات غرضِ الاستفهام التَّعجّبيِّ هنا، فإنَّ تعجُّبَهم يُرادُ منه شِدَّةُ النَّفي لأن يَبعثَ اللّهُ بشرًا رسولًا، على ما قرّره أولئك الحمقَى ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤﴾ [الإسراء: 94]، ويصحُّ أن يكون الاستفهامُ إنكاريًّا، باعتباره يقتضي أنَّهم خاطبوا من قاربَ أن يُصدِّق بنبوّة محمَّدٍ ﷺ، أي: فكيف تؤمنون بنبوّتِه وهو أحدٌ منكم[2].

غرضُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ القريبِ:

الحسدُ كامِنٌ في النُّفوسِ لا يظهَرُ إلّا في ثنايا النَّظْمِ وإشاراتِ الكلامِ

في التّعبير باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾، دونَ ذِكْر الاسم العَلَم أو صفةٍ من صفاتِه ﷺ، يُظهِرُ ازدراءَهم بالنّبيِّ الكريم ﷺ، وتقليلَهم من شأنه، وهو ما يعكسُ حسدَهم وحِقدَهم، وهذا أسلوبٌ حاضرٌ في كلام النّاس إلى اليوم؛ فإنّ من شأنِهم أن يذكروا الغائبَ إذا كان آخذًا من تفكيرِهم واهتمامِهم باسم الإشارة للقريب لقلّةِ الاعتدادِ به.

بلاغةُ القَصْر ونوعُه وغرضُه:

قَصْرُ المُشارِ إليه على البشريَّةِ مُرادٌ به نفيُ النُّبوّة

أفادت أداةُ ﴿هَلۡ﴾ مع أداة الاستثناءِ القصرَ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ لكونِه باعتبارٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 408، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 10.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 13.

معيّنٍ، والغرضُ منه تعيينُ بشريَّةِ المُشار إليه دونَ أيّ صفةٍ أُخرى، والمقصودُ صفةُ الرِّسالة، كأنَّهم قالوا: ما هذا ملكًا، فهو نفيٌ وإثباتٌ؛ نفيٌ للمَلَكيّة، وإثباتٌ للبشريَّة، والمقصودُ نفيُ الرِّسالة، فهو تأكيدٌ لِما يجولُ في نفوسِهم.

نوعُ الاستثناءِ ومعناه في قوله: ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾:

الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ مُفرّغٌ؛ فهو استثناءٌ خالٍ من وجودِ المستثنى منه، ومعنى الكلام: (هذا بشرٌ مثلُكم).

سِرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿بَشَرٌ﴾ دون مرادفاتِها، وتنكيرِها:

البشريَّةُ تُقابلُ الملائكيَّةَ، وبإثباتِها توكيدٌ لمقصدِهم في نفيِ النُّبوَّة

اختيرَ لفظُ ﴿بَشَرٌ﴾ في الآية الكريمةِ دونَ مرادفاته، من مثل: إنسانٍ أو رجلٍ؛ وذلك باعتبارِ أنَّ البشريَّة هي التي تُقابلُ الملكيَّةَ، واللهُ ﷻ أخبر عن ذلك حين قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر: 28]، فيكونُ هذا الاختيارُ من باب توكيد نفْي أن يكون رسولًا؛ لأنَّ النُّبوّة - على زعمِهم - من وظائف الملائكة، ونُكِّر لفظُ ﴿بَشَرٌ﴾ لتقليل شأنِ المُشار إليه؛ بقصْدِ التّحقير أن يتّصفَ بالنُّبوّة، أي: ما هو إلّا بشرٌ لا يزيدُ عن ذلك بمَزيَّةٍ؛ فكيف ينزلُ عليه الوحيُ منَ السَّماء؟!

غرضُ التّشبيه وأثرُه البيانيُّ:

التَّفكيرُ العقيمُ والعقلُ الكنودُ من يُسوّي بين الكريمِ واللّئيمِ، والحميدِ والذَّميمِ

جاء التَّمثيلُ في قوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بغرض المساواةِ وإثباتِ المعادلة، أي: هو بشرٌ مثلُنا سواءٌ بسواء، لا فرقَ ولا اختلافَ، فإذا نزل عليه الوحيُ؛ فيجبُ أن ينزلَ علينا مثلُه، وإذا لم ينزل علينا فكيف له أن ينزلَ عليه؟! فهم أثبتوا المثليَّةَ في الصّفاتِ البشريَّةِ؛ للوصولِ إلى نفْيِ الصِّفات المستحقَّةِ لأنْ يكون رسولَ آخرِ الزَّمان.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

يرجعُ ضميرُ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ إلى القوم

المُتناجين من كفّارِ قريش، وهو يَعمُّ كلَّ مَن صدر عنه هذا القولُ فيما بعدُ.

بلاغةُ الاستفهام ونوعُه وغَرضُه:

إنكارُ المكذِّبين وتوبيخُهم يلحقُ كلَّ مَن يُهدِّد الباطلَ وأهلَه

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ يحملُ معنَى التّعجّب والإنكارِ والتّوبيخ، وقد أنكروا على بعضهم بعضًا كيف يَنسَلُّونَ خُفيةً ليسمعوا القرآنَ من محمّد ﷺ؛ فتبهرَهم بلاغتُه، وتستهويَهم فصاحتُه، فيُعاوِدوا المَجيءَ لسماعه وكأنّهم قبلوه! وهم يُدركون أنَّ إتيانَ مجالسِ تلاوة القرآنِ ستجعلُهم يتأثّرون، وبالتّالي سيقودُ ذلك إلى الإعجابِ، ومن ثَمّ إلى الإيمان والامتثالِ، وهو ما يخشاه أهلُ الباطلِ على باطلِهم.

معنَى الفاء ودلالتُها على المحذوف:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ عاطفةٌ على مُقدّرٍ يقتضيه المقامُ[1]، يمكن تقديرُه بـ(أتتركون دينَ آبائكم فتأتون السّحرَ وأنتم تبصرون)؟!

بلاغةُ المجازِ في استعمالِ مُفردةِ (الإتيان):

تحريضُ الكفّارِ على هجْرِ سماعِ القرآن

أُطلِق (الإتيانُ) في قولِه تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ على "القَبولِ والمُتابعةِ على طريقِ المجازِ أوِ الاستعارةِ؛ لأنّ الإتيان لِشيءٍ يقتضي الرّغبةَ فيه، ويجوزُ أن يُراد بالإتيانِ هُنا حُضورُ النّبيِّ ﷺ لسماعِ دعوتِه، فجعلُوهُ إتيانًا؛ لأنّ غالبَ حُضورِ المجالسِ أن يكُون بإتيانٍ إليها، وجعلوا كلامَهُ سِحرًا فنهَوا مَن ناجَوهُم عنِ الاستماعِ إليه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فُصّلت: 26]"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 54.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 224، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 14.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ:

شـبّـهَ الـكُـفّـار القرآنَ بالسِّحر لقوّة تأثيرِه

ادّعى الكفّار أنّ القرآن سِحرٌ في قوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾؛ لقوّة تأثيرِه على النُّفوس، ووقعِه على القلوب، مع العجز عن معارضتِه، فشبّهوه به، ثمّ حُذِف المُشَبّهُ - وهو القرآن - وأقيمَ المُشَبّهُ به - وهو السحر - مقامَه على سبيل الاستعارة التّصريحيّة الأصليَّة، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقة؛ لأنَّها كشفٌ لِما يجولُ في نفوسِهم منِ اعتقادِ قُوَّةِ التَّأثير في السّامعين، وسُرعة أثرِه فيهم.

دلالةُ التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلسِّحْرَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلسِّحْرَ﴾ إمّا أن تكون للجنس، أي: جنس السّحر، فعَبَّروا بالجِنس وأرادوا نوعًا من أنواعه، وهو القرآنُ بزعمِهم؛ مبالغةً في كونه عينَ السِّحر في نظرهم، وإمّا أن تكون للعهد الذّهنيِّ الذي يتبادَرُ بينهم؛ لتواطُئِهم عليه، وترويجِهم أنَّ القرآن سِحْرٌ، وهذان المعنيان متقاربان في الغاية، مختلفان في التَّفصيل.

فائدةُ جُملةِ الحالِ السّياقيَّةِ:

مسلكُ المُكذِّبين قلبُ الحقائقِ وطَمسُ الأدلّةِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ حاليَّةٌ، والجملةُ بعدَها في محلّ نصبٍ حالٌ منَ الفاعل في ﴿أَفَتَأْتُونَ﴾، وتظهر فائدةُ جملةِ الحال في كونها مقرِّرةً لمعنى الإنكار الواردِ في جُملتَي الاستفهام السّابقتَين، ومُعلّلةً للتّوبيخ الواردِ فيها، أي: (كيف تأتونه بأنفسِكم لسماعه، وأنتم تقولون أنَّه سحر؟!) وهذا زيادةٌ في الإنكار ومحاولةِ إقامة الحُجَّةِ على مَن يستمعُ القرآنَ، وهو دليلٌ كاشفٌ عن مسلكِهم التَّرهيبيِّ في قلبِ الحقائق، وإلزامِ أنفسِهم بما لا يقتنعون به؛ ذهابًا في الضَّلالةِ، وضياعًا في التّيه.

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ، ونُكْتَةُ التّقديمِ فيها:

التَّعريضُ بأهل الحقِّ أنَّهم لا يُبصرون

دلَّتِ الجملةُ الاسميّةُ المكوَّنةُ منَ المُسنَد إليه والمسنَدِ الفعليّ ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ على الثَّبات، أي: حالكم أنَّكم ثابتون في البصيرةِ،

ومعرفةِ أنَّه سِحْر، وقُدِّم المسنَدُ إليه ﴿وَأَنتُمْ﴾ على المسنَدِ الفعليِّ في قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ لتوكيد المعنَى وتقويةِ الحُكم، وكذا التّخصيصِ على المبالغةِ؛ فكأنَّ الإبصارَ قاصرٌ عليهم، ليس لغيرهم منه نصيبٌ، أي: (وأنتم تبصرون لا غيركم)، وهذا شأنُ كثيرٍ من أهل الباطل، لا يتطرّقُ إليهم شَكٌّ أنَّهم على الحَقّ، في مقابل نفْيِ العقل والإدراكِ عن أهل الحَقّ، ففي الاختصاصِ تعريضٌ بأهل الحَقِّ أنَّهم لا يُبصرون.

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ (الإبصار) دون (النَّظر):

النَّظرُ رؤيةُ المحسوساتِ، والإبصارُ دَركُها على حقيقتِها

اختار النَّظمُ الكريمُ مُفردةَ (الإبصار) دون (النّظر) في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّ الإنسانَ قد ينظرُ للشّيء دونَ أن يُبصرَه، دليلُ ذلك قولُه تعالى ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: 198]، وقولُه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، أي: "أتَقبلون سِحْرَه وتحضرون هناك، وأنتم ترونَ أنَّه رجلٌ مثلُكم، أو تعلمون أنَّه سِحْرٌ وأنتم من أهل البصر والعقل؟"[1]، فالنَّظرُ: هو وصولُ حاسَّةِ البصر، والإبصارُ: هو دَرْكُ المُبْصَرات على حقيقتِها، فهم يُنكرون عليهمُ الإتيانَ لسماع القرآن، مع تحقيق إبصارِ الحقيقةِ فيما يزعمون.

دلالةُ التّعبير بصيغةِ المضارعِ ﴿تُبْصِرُونَ﴾، مع حذفِ متعلَّقِه:

الباطلُ المتزعزعُ يحتاجُ إلى تثبيتٍ مستمرٍّ

دلَّ الفعلُ المضارع ﴿تُبْصِرُونَ﴾ على تجدُّدِ الإبصار مرَّةً تلو أخرى؛ لتثبيتِ الباطل المتزعزعِ في النُّفوسِ، فهم يُدركون أنَّ باطلَهم لا يثبت أمامَ الحقِّ النّازلِ، فيسعَون إلى تثبيته بمزيد نظرٍ واعتبار، وحُذِفَ متعلّقُ فعلِ ﴿تُبْصِرُونَ﴾؛ استحضارًا للمعاني المحذوفة منَ

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 6.

السّياق، أي: تبصرون أنَّ القرآن سحرٌ، ونحو ذلك من أوصاف، تنزَّهتِ الآية عن ذِكرها؛ لمعرفتِها وإيثارِ طيِّها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّجوَى والسِّرُّ:

السِّرُّ الكلامُ المكتومُ في النُّفوس، والنَّجوى الكلامُ الخفيُّ بينَ الأفراد

النّجوى اسمٌ للكلام الخفيّ، الذي تُناجي به صاحبَكَ، كأنّكَ ترفعُه عن غيره؛ وذلك أنّ أصلَ الكلمةِ الرّفعةُ، ومنه النّجوَةُ منَ الأرض، وسُمّي تكليمُ اللّه تعالى موسى ﷺ مناجاةً؛ لأنّه كان كلامًا أخفاه عن غيره.

والسّرُّ: إخفاءُ الشّيء في النّفس، ولوِ اختفى بسترٍ أو وراءَ جدارٍ لم يكن سِرًّا، ويُقال: في هذا الكلام سِرٌّ؛ تشبيهًا بما يُخْفَى في النّفس، ويقال: سِرّي عند فلان؛ تريد ما يُخفيه في نفسه من ذلك، ولا يُقال: نجواي عنده، وتقول لصاحبك: هذا أُلقيه إليكَ، تريد المعنَى الذي تُخفيه في نفسك.

والنّجوى تتناول جملةَ ما يُتناجَى به منَ الكلام، والسّرُّ يتناول معنَى ذلك، وقد يكون السّرُّ في غير المعاني مجازًا، تقول: فعل هذا سِرًّا، وقد أسَرَّ الأمرَ، والنَّجوى لا تكونُ إلّا كلامًا[1]، وممّا يدلُّ على اختلاف النَّجوى عنِ السِّرِّ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التّوبة: 78].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 533.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»